اللفظ والمعنى

قضـية اللفظ والمعنى أو الشـكل و المضـمون مما يتعلق ببنية الخطاب الأدبي عموما من القضايا النقدية التي تمرس بها النقد العربي القديم،و قد نشأت هذه الفكرة وترعرعت في بيئة المتكلمين الذين اتجه بعضـهم إلى ربط قضـية الإعجاز القرآني بالنظم أوالصـياغة،و يعد أبو إسـحاق النظام[1] " أول من فصـل في سـياق مناقشـته قضـية الإعجاز شـكل القرآن عن مضـمونه، فأصـبح مصـطلح الإعجاز منذ وقت مبكر يطلق على جملة الخصـائص البيانية و البلاغية و اللغوية العامة الماثلة في هذا النص" [2] .

و قد كثر حديث النقاد عن هذه القضية، وانقسموا إزاءها إلى طوائف ثلاث؛ منهم من يفضـل اللفظ على المعنى، و منهم من يفضـل المعنى على اللفظ، و منهم من وقف موقفا وسطا توفيقيا فاهتم بطرفي الثنائية، و لم يفضل طرفا على الآخر.

و ينبغي بداية أن نحدد مفهوم طرفي هذه الثنائية ؛ فالمعنى يقصد به جانب المضمون، إذ من دلالاته الفكرة النثرية التي يَـبين عنها البيت أو القصيدة، أما اللفظ فالمقصود به جانب الصياغة أو الشكل [3] .

و ربما يعد الجاحظ على رأس الطائفة الأولى من النقاد الذين آثروا اللفظ على المعنى في نظريته المشهورة التي يقول فيها : " و المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي و العربي، و البدوي و القروي، و المدني ، وإنما الشأن في إقامة الوزن، و تخير اللفظ، و سهولة المخرج ، وكثرة الماء، و في صحة الطبع، وجودة السبك"[4]، فالجاحظ هنا صريح في تفضيله الجانب

---

[1] – هو أبو اسحاق ابراهيم بن سيار بن هانىء النظام ،كان متكلما شاعرا أديبا، من أئمة المعتزلة في عصره، و هو أستاذ الجاحظ، توفي سنة 231 هـ .

[2] – التفكير البلاغي عند العرب : د/ حمادي صمود، ص: 38 .

[3] – نظرية المعنى في النقد العربي : د/ مصطفى ناصف ، ص : 38 .

[4] – الحيوان : للجاحظ ، 132/3 .

الشكلي من الخطاب الأدبي المتمثل في الوزن، و اللفظ و الصياغة على المضمون، و ربما كانت هناك عوامل كثيرة دفعت الجاحظ إلى القول بهذه النظرية منها ما يرجع إلى المناخ الأدبي و النقدي السائد في عصره، ومنها ما يرجع إلى طبيعة التكوين الثقافي للجاحظ، و يفصل الدكتور إحسان عباس الحديث في شرح هذه العوامل فيقول : " منها أن الجاحظ لم يتابع أستاذه النظام في قوله بالصرفة تفسيرا للإعجاز ، و إنما وجد أن الإعجاز لا يفسر إلا عن طريق النظم، و من آمن بأن النظم حقيق برفع البيان إلى مستوى الإعجاز لم يعد قادرا على أن يتبنى نظرية تقديم المعنى على المعنى، ومنها أن عصر الجاحظ كان يشهد بوادر حملة عنيفة يقوم بها النقاد لتبيان السرقة في المعاني بين الشعراء، و لا نستبعد أن يكون الجاحظ قد حاول الرد على هذا التيار مرتين : مرة بأن لا يشغل نفسه بموضوع السرقات كما فعل معاصروه، و مرة بأن يقرر أن الأفضلية للشكل لأن المعاني قدر مشترك بين الناس جميعا، و سبب ثالث قائم في طبيعة الجاحظ نفسه، فقد كان رجلا خصب القريحة، لا يعييه الموضوع، و لا يثقل عليه المحتوى أيا كان لونه، و لذا فإنه كان يحسن أن المعنى موجود في كل مكان، و ما على الأديب إلا أن يتناوله و يصوغه صياغة متفردة " [5] .

و أيا تكن الأسباب التي دفعت الجاحظ إلى الإعلاء من شأن اللفظ على حساب المعنى، فإن الذي لا شك فيه هو أن رأي الجاحظ هذا كان له أثر كبير على من جاء بعده من النقاد، و أسهم في تكريس الفصل بين اللفظ و المعنى، أو الشكل و المضمون في العمل الأدبي .

و في الإطار نفسه يرى الجاحظ ألا قيمة للمعنى بدون لفظ لأنه يظل مستورا خفيا حبيس خلجات النفوس، و مكنونات الصدور، فحياة المعنى و نشاطه و حركيته متعلقة باللفظ،و بدون هذا اللفظ يظل المعنى مواتا وعدما، و في ذلك يقول : "المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم، و المتخلجة في نفوسهم، و المتصلة بخواطرهم، و الحادثة

---

[5] – تاريخ النقد الأدبي عند العرب : د/إحسان عباس ، ص : 98 – 99 .

عن فكرهم مستورة خفية، و بعيدة وحشية، و محجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة ، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، و لا حاجة أخيه وخليطه، ومعنى شريكه، و المعاون له على أموره، و على ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، و إنما يحي تلك المعاني ذكرهم لها، و إخبارهم عنها، و استعمالهم إياها ... و على قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، و دقة المدخل يكون إظهار المعنى، كلما كانت الدلالة أوضح و أفصح، و كانت الإشارة أبين و أنور كان أنفع و أنجع" [6] .

فالجاحظ هنا يطرح علاقة اللغة بالفكر، إذ لا قيمة للفكر ، بل لا وجود له أصلا بدون لغة، لسبب بسيط هو أننا لا نستطيع أن نفكر بدون لفظ، و يمكن أن نشرح ذلك بالمعادلة الآتية :

اللغة قبل اللسان فكر ⟸ الفكر بعد اللسان لغة .

ومن هنا يكون اللفظ (= اللغة) أداة تواصل و اتصال بين الناس، و في السياق ذاته يحاول الدكتور عبد العزيز حمودة أن يقدم قراءة عصرية لنص الجاحظ النقدي المذكور، فيرى بأنه يقدم" نظرية اتصال لغوية يقوم الجاحظ فيها بتعريف الرسالة والمرسل و المستقبل و الشفرة، فالرسالة هي " المعاني القائمة في صدور العباد"، أما المرسل "العباد" الذي يشير إليه الجاحظ، فهو الفرد أو الإنسان في عزلته و هو ينشد الاتصال، أما المستقبل أو المتلقي فهو الإنسان الآخر في عزلته " الذي لا يعرف ضمير صاحبة ولا حاجة أخيه و خليطه"، أما الشفرة فهي اللغة التي بها تحيا المعاني الخافية في صدر المرسل " [7] ، و لعلي في حاجة إلى القول هنا بأننا نجد دائما في الآراء النقدية المعاصرة ما يماثلها في نقدنا العربي القديم مما يمكن التأسيس عليه لشرعية استمرار هذه الآراء في حاضرنا بعد إعادة قراءتها قراءة جديدة.

---

[6] – البيان و التبيين : 75/1 .

[7] – المرايا المقعرة : د/ عبد العزيز حمودة ، ص : 223 .

و إذا كان الجاحظ قد نادى بأفضلية اللفظ على المعنى إلا أننا بالمقابل نجد له نصوصا أخرى تدل على أنه يميل إلى التوفيق بين اللفظ و المعنى ، وأنه كما يتفاوت اللفظ يتفاوت المعنى؛ فالمعنى فيه ما هو شريف ، و فيه ما هو خسيس فمن " أراد معنى كريما ، فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف"[8]، بينما "سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني" [9] ، فهل يمكن القول هنا إن في كلام الجاحظ عن اللفظ و المعنى تناقضا و خلطا ، شأنه في ذلك شأن غيره من كثير من النقاد و البلاغيين العرب القدماء ؟ أم أن في عبارة الجاحظ الأولى التي يفصل فيها بين اللفظ والمعنى غموضا ، و أن " الذي يحدد مفهومه للفظ و المعنى هو كتاب البيان والتبيين كله ، و مراجعة ما ينتشر في ثناياه متعلقا بمدلول الكلمتين " [10]

ومهما يكن فقد كان لمقولة الجاحظ السابقة أثر سلبي على كثير من النقاد من بعده، وحسبنا أن نذكر أن أبا هلال العسكري يكاد يردد قول الجاحظ بمعناه ولفظه إذ يقول :" ليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي و البدوي، وإنما هو في جودة اللفظ و صفائه، وحسنه و بهائه و نزاهته ونقائه، و كثرة طلاوته و مائه، مع صحة السبك و الترتيب، و الخلو من أود النظم والتأليف ... و لهذا تأنق الكاتب في الرسالة، و الخطيب في الخطبة، و الشاعر في القصيدة، يبالغون في تجويدها، و يغلون في ترتيبها ، ليدلوا على براعتهم، وحذقهم بصناعتهم، و لو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كدا كثيرا، وأسقطوا عن أنفسهم تعبا طويلا" [11].

و من بين الذين أكدوا أولوية المعنى على اللفظ أبوحيان التوحيدي، إذ نجده يعيب على بعض الكتاب احتفالهم باللفظ، وإهمالهم المعنى ، فقد لاحظ على ذي الكفايتين بن بن

---

[8] – البيان و التبيين : 136/1 .

[9] – البيان و التبيين : 145/1 .

[10] – قضايا النقد الأدبي بين القديم و الحديث: د/ محمد زكي العشماوي ، ص : 248 – 249 .

[11] – الصناعتين : للعسكري، ص : 72 – 73 .

العميد بأنه " نزر المعاني، شديد الكلف باللفظ " [12] ، كما أخذ على الصاحب بن عباد كلفه باللفظ، إذ يذكر من عيوب طريقته في الكتابة " الذهاب مع اللفظ دون المعنى" [13] ، كما نجد التوحيدي يجعل المعنى على رأس عناصر الإبداع الأدبي فيقـــول : " و يجب أن يكون الغرض الأول في صحة المعنى، و الغرض الثاني في تخـير اللفـظ، و الغرض الثالث في تسهيل النظم، وحلاوة التأليف، واجتلاب الرونق " [14].

غير أن التوحيدي لم يتوسع في شرح رأيه و التبرير له، و إن كان يرتب على هذه القضية و رأيه فيها تقييمه العمل الفني، و تحديده نوعية الأدب الذي يفضـــله، و هو الأدب الذي يجمع بين العقل و الفن، و إن شئنا قلنا " الفائدة و الإمتاع " ؛ الفائدة المتحققة في المعنى، و الإمتاع المتحقق في اللفظ، إذ يقول عقب الفقرة الســابقة : "فخير الكلام ما أيده العقل بالحقيقة، و ساعده اللفظ بالرقة، و كان له سهولة في السمع ، ووقع في النفس ، وعذوبة في القلب ... يجمع لك بين الصـحة و البهجة و التمام ؛ فأما صـحته فمن جهة شـهادة العقل بالصـواب، و أما بهجته فمن جهة جوهر اللفظ، واعتدال القسـمة، و أما تمامه فمن جهة النظم الذي يستعير من النفس شغفها، ويستثير من الروح كلفها " [15] .

و لا بد أن نشير إلى أن التوحيدي بتأكيده على أولوية المعنى لا يهمل اللفظ، وإنما يرى ضـــرورة التوازن بين اللفظ و المعنى و التحامهما في الخطاب الأدبي، فجودة اللفظ عند التوحيدي أحد العناصر الرئيسة الثلاثة التي يتشكل منها الخطاب الأدبي إلى جانب صحة المعنى، و حسـن النظم، و هو يؤكد هذه الحقيقة بقوله : " ولا تعشـق اللفظ دون المعنى، و لا تهو المعنى دون اللفظ " [16] ، و ذلك إيمانا منه بالتكامل بين ركني العملية الإبداعية :

---

[12] – الإمتاع و المؤانسة : للتوحيدي ، 66/1 .

[13] – الإمتاع و المؤانسة : للتوحيدي، 64/1 .

[14] – أخلاق الوزيرين : للتوحيدي ، ص : 135 .

[15] – أخلاق الوزيرين ، ص : 135 – 136 .

[16] – الإمتاع و المؤانسة ، 10/1 .

الشـكل و المضـمون، و إدراكا منه بأن اللفظ و إن كان مجرد وسـيلة لا غاية في حد ذاته، فإنه يجب أن يولى من العناية ما يجعله يؤدي المعنى في دقة و عمق وجمال .

أما مذهب التوفيقيين فإننا يمكن أن نتلمسـه في محاولة مبكرة لكلثوم بن عمرو العتابي يذهب فيها إلى أن " الألفاظ أجسـاد، و المعاني أرواح" [17] ، ونجد هذا التشـبيه للفظ بالجسد، و المعنى بالروح يتكرر عند كثير من النقاد من بعده كابن طباطبا العلوي الذي يرى أن " الكلام الذي لا معنى له كالجسـد الذي لا روح فيه" [18] ، وهي محاولة لإظهار مدى التآلف و الانسجام بين عنصري الخطاب الأدبي، فكما أن الجسد لا قيمة له بدون روح، و الروح لا قيمة لها بدون جسـد، لأنها شـيء غير محسـوس، فكذلك اللفظ لا قيمة له بدون المعنى، إذ يستحيل إلى مجرد رموز كتابية ، أو أصوات كلامية لا دلالة لها، وكذلك المعنى لا وجود له إلا في إطار اللفظ .

و يبرز لنا الهمذاني هذه العلاقة الحميمية المتشـابكة بين اللفظ و المعنى التي تحقق للخطاب الأدبي جماله مضـافا إليها عناصـر أخرى بقوله : " فإذا كانت الألفاظ مشـاكلة للمعاني في حسـنها، و المعاني موافقة للألفاظ في جمالها ، و انضـاف إلى ذلك قوة من الصواب ، و صفاء من الطبع ، و مادة من الأدب، وعلم بطرق البلاغات ، ومعرفة برسوم الرسـائل و المكاتبات، كان الكمال " [19] ، فالمشـاكلة الجميلة بين اللفظ و المعنى في انسـجام و تناسـق تام بالإضـافة إلى صـفاء الطبع، و التمكن من أدوات البلاغة، والمعرفة بأسـاليب الكتابة الجيدة كل ذلك من شـأنه أن يحقق للخطاب النثري صـفة الكمال من الناحية الجمالية، و هي نظرة تتفق مع ما انتهى إليه النقد الحديث من اعتباطية القول بالفصل بين الشكل و المضمون أو اللفظ و المعنى أو الدال و المدلول إذ ليس ثمة حدود

---

[17] – الصناعتين : للعسكري ، ص : 179 .

[18] – عيار الشعر : لابن طباطبا ، ص : 11 .

[19] – الألفاظ الكتابية : للهمذاني ، ص : 14 .

في التـــــأثير الأدبي بين المعنى و المبنى، و إنما هنالك حالة واحدة تكاد لا تتجزأ ، تتولد من انصهار المعنى و المبنى في وحدة تامة خلال لحظة الإبداع التي يعانيها الأديب .

و يبرز لنا هذا المفهوم بصورة أدق في قول الخطابي (ت 388هـ) : " و إنما يقوم الكلام بأشياء ثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، و رباط لهما ناظم" [20] ، وهذه المقولة – على إيجازها – تتميز بالدقة العلمية بحيث يمكن القول إنها تشكل نظرية لغوية، فنحن هنا – كما يقول الدكتور عبد العزيز حمودة – : " أمام شروط تحقق الدلالة أو المعنى، و هو ما يقصده الخطابي بـ " إنما يكون الكلام " و هذه الشروط هي وجود نسق من العلامات ، كل علامة تتكون من عنصرين الدال و المدلول، وهو معنى " لفظ حامل، و معنى به قائم" ، لكن هذه العلامات اللغوية تبقى عاجزة عن تحقيق المعنى إلى أن ينظمها نظام علاقات يمكنها مجتمعة من تحقيق الدلالة" [21]، وهكذا فلا قيمة للفظ في حد ذاته، ولا للمعنى في حد ذاته، منفردين كل منهما عن الآخر، وإنما قيمتها تظهر في تلاحمهما و انسجامهما، و عدم الفصل بينهما في البناء الهندسي المتكامل للخطاب الأدبي .

---

[20] – بيان إعجاز القرآن : للخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ، ص : 27 .

[21] – المرايا المقعرة : د/ عبد العزيز حمودة ، ص : 234 .